سِيُورَانْ رَهِينَ الْغُرْبَتَيْنِ

فَلْسَفَة سِيُورَانْ بِوَصْفِهَا سِيرَةٌ ذَاتِيَّةٌ

إعداد

عبد الله علي عمران

أستاذ مشارك/ قسم الفلسفة/جامعة عمر المختار

abdullah.ali@omu.edu.ly

الملخص:

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على فلسفة "سيوران"، من منطلق أنها نتاج خالص لحياته التي عاشها، سواء في مرحلة الطفولة وما عرفته من توتر علاقته مع والديه، أو مرحلة الشباب وما عانى فيها من غربة عندما غادر مسقط رأسه للدراسة، والتي نتج عنها إصابته بالأرق، أو مرحلة النضج التي تعرض فيها للتهميش والتمييز عندما كان لاجئا في فرنسا، وهو ما يتطلب عرضا تاريخيا لأهم الأحداث في حياة "سيوران"، وطرحا تحليلا نقديا ليتسنى من خلاله معرفة كيف أثر كل ذلك على أطروحاته الفلسفية الخاصة بالأسرة والمرأة والزواج والإنجاب والانتحار والوطن والقومية، ومن جهة أخرى، كيف أنه كان أكثر ميلا في استخلاص أفكاره ونصوصه من القصص الشعبية وأقوال العوامّ، أكثر من ميله إلى الاستشهاد بأقوال وأفكار الفلاسفة وما يطلع عليه من الإرث الفلسفي.

الكلمات الدالة: سيوران-حياة الفيلسوف-السقم-الغربة

Abstract :

This research seeks to explore the intricacies of Cioran's philosophy, asserting that it is a direct reflection of his life experiences. These experiences range from his childhood, where he faced tensions in his familial relationships, to his youth, during which he encountered profound alienation after departing from his hometown for educational opportunities, leading to bouts of insomnia. In his later years, Cioran's status as a refugee in France subjected him to marginalization and discrimination. A comprehensive historical account of pivotal moments in Cioran's life is essential for understanding how these factors influenced his philosophical positions on family,

women, marriage, childbirth, suicide, homeland, and nationalism. Moreover, it is noteworthy that Cioran often preferred to derive his ideas from folk narratives and the expressions of common people, rather than from the established philosophical canon.

Keywords: Cioran- The life of the philosopher- sickliness- Alienation

توطئة

لا شك في أن الإنسان بصفةٍ عامةٍ يتأثر بمحيطه -قلّ ذلك التأثر أو كثر- ويُسهم في بناء طريقة تفكيره، ويفرض نمطاً محدداً على أفكاره، كما أنّ الحياة الشخصية، وما يمر به الإنسان في طفولته، وما يختبره في شبابه وحتى شيخوخته، كلّها أحداث تترك أثرا في أسلوب تفكيره وتسهم بشكلٍ أو بآخرٍ في تحديد ما يتبناه من معتقدات وآراء.

وليست الفلسفة استثناءً من ذلك، فقد كانت الفلسفة طوال تاريخها مرتبطة ببيئتها التي تنشأ فيها، حيث يُملي عليها الظرفُ التّاريخيُّ والحضاريُّ طبيعةَ القضايا التي تناقشها، والسياق المعرفيّ الذي يجب أن تحلّل فيه أفكارها، فالمتتبّع لتّاريخ الفلسفة يلحظ بكلّ سهولةٍ كيف أنها كانت وليدة عصرها، سواء في الشرق القديم بطرح إشكاليات الوجود والأخلاق، أو في بلاد اليونان التي تحوّل النّظر من تفسير نشأة الكون إلى فهم القيم الإنسانية، ثم هيمنت عليها في العصور الوسطى إشكاليات الأديان الكبرى، إلى أن طفت إشكاليات المعرفة والعلم على السطح في الحقبة الحديثة، انتهاء بقضايا الوجود والمصير الإنساني في الفلسفة المعاصرة.

ومن جهة أخرى، لقد أبدع العديد من الفلاسفة في تكوين فلسفاتهم وأفكارهم بناء على تجاربهم الحياتيّة الخاصة، حتى أصبح المؤرّخون والشُرّاح، يميلون إلى ربط حياة الفيلسوف بأفكاره حتى يتسنى لهم فهمها بشكلٍ جيدٍ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصى، فموقف الفيلسوف اليوناني "أفلاطون" من بعض النّظم السياسيّة، جاء نتيجة لموقفه مما عايشه أثناء إعدام أستاذه "سقراط"، أما في الحقبة المعاصرة فيُعد الفيلسوف الألمانيّ "نيتشه" أشهر الأمثلة، فقد أدت تربيته الدينية المتشددة إلى ردة فعلٍ عنيفةٍ ضد الدين، إضافة إلى أن فشله الأسريّ والعاطفيّ انعكس على موقفه من المرأة.

ويعد الفيلسوف الفرنسي "سيوران Emil Cioran "(1911 – 1995) مثالا بارزا في هذا الجانب، حيث كان متسقا مع الطابع العامّ لعصره، الذي يصارع ضدّ إشكاليات الوجود الإنسانيّ الكبرى، مثل الولادة والموت والانتحار والعدميّة والعبثيّة والتّشاؤميّة، والصراع الدائر بين ما هو قديم وجديد وبين ما هو محليّ وما هو عالميّ، كما كانت فلسفته شديد الصلة بحياته والتي عاشها وحيدا غريبا مريضا، فضاعفت من الطابع التّشاؤميّ والسوداويّ وجعلت أفكار الأرق والانتحار حاضرة بقوةٍ في نصوصه.

أولا- حياة سيوران بوصفها مصدرا لفَلسفتهِ

هناك شيئان مهمَّان يجب الإشارة إِليهما عنْد الحدِيث عن حَياة "سِيورَان": الأوَّل يتمثَّل في أنَّ فلسفته وثيقة الصلة لِدرجةٍ حَميمِيةٍ بِحياته ومزاجه، فلَا انفصال بيْن الإنْسان والْمفكِّر، فهناك تَمَاهٍ كبيرٌ بَيْن كِتاباته وحياته، إِلى حدٍّ أصبح فِيه من الصَّعْب الإمْساك بالخيْط الرفِيع الذِي يفصِل بيْن فلسفته من جهةٍ ومواقف حياتِه وسيرَته الذَّاتيَّة من جِهةٍ أخرَى، فالْعمل الفكْرِي والْمفكِّر يكونان شيْئًا واحدًا بالنِّسبة له.[1]

وَيمكِن القول بشكلٍ عامٍّ، أنَّ "سِيورَان" كان يَستَل كِتاباته وآراءه مِن النَّوادر الشَّعْبيَّة والْحكايات البسيطة، من القراءة ومن المعايشة، وَمن التَّواصل مع الآخرين، وَذلِك لِأنَّ الفلْسفة بالنِّسبة لَه، تُعدُّ نشاطًا فكْريًّا شديد الصلَة بِالْحياة، إِذ لَا تَنفَصِل بتاتًا عن طريقة عيشِه، بل لا مُبالغَة فِي القول بأنَّ الفلْسفة، أعادتْ معه اكتِشاف هُويَّتِهَا الأصْليَّة، فَهُو الفيْلسوف الوحِيد (في الحقْبة المعاصرة) بالمعنى الحرفيّ لِلْمصْطلح اليونانيِّ، وَهو نوع مِن الفلاسفة غَائِب منْذ زمنٍ طويلٍ.(2)

وكل ذَلِك جعل مِن فلْسفَته تَخرُج من رحم معاناة حَياتِه اليوْميَّة، إِذ اسْتلْهم مَادَّة تفْكيره مِن الأسْئلة الكُبرى التِي يُصادفهَا فِي حَياتِه العاديَّة، وَداخِل بَعْض التَّفاصيل الصَّغيرة، ولَا تَكَاد تَنفَصِل فِكْرَة مِن أفْكاره عن نَادِرة مِن النَّوادر أو حِكاية مِن الحكايات التِي عاشهَا، فقد كان يُجسِّد بِطريقةٍ مُبَاشرَةٍ المقولة: (بِأنَّ الفلْسفة طَرِيقَة حَيَّاةٍ وسبيل خَلَاصٍ فَردِيٍّ، وليْستْ ابتِداع مقولَاتٍ وَتكوين تصوُّرَاتٍ).(3) وبناء على مَا سبق، نَستنْتِج الأمْر الآخر المهِم: وَهُو أنَّ كِتابَات "سِيورَان" تَبدُو وَكَأنهَا سِيرة شَخصِية، لِذَلك نَتَعرَّف فِي ثنايَا كِتاباته على "سِيورَان" نَفسِه.(4)

وَحتَّى عنْدما يحَاوِل تَجنُّب الحدِيث عن حَياتِه، تُرْغِمه بقايَا الغريزة على التَّشَبُّث بِالْكلام، فالصَّمْتُ لَا يُطَاق، وَإنَّه لَمِن السَّهْل عليْه أن يَتَخلَّى عن الخُبز، وَلكِن مِن الصَّعْب أنَّ يتخلّى عن الكلَام، مع عِلْمِه المُسبق بِأنه -وَبكُل أسفٍ- بأنّ الكلَام سيِنْحَدر نَحْو الهُراء أو نَحْو الأدب، وَلكِن لَا يُمْكِن بَتْر الكلمات أو مَنْع تَدفقِها وتضخُّمهَا أو إِيقافهَا بِنقْطةٍ أو تقْليصهَا إِلى حِكْمِةٍ أو قَصِيدَةٍ، لِأنَّ ذَلِك اعتِراض لِانْسيابيَّتهَا وحركتهَا الطَّبيعيَّة وانْدفاعهَا نَحْو النُّموِّ.(5)

لَيْس هذَا وحسْب، بل إِنَّه فِي كِتاباته يَبدُو أحْيانًا مُتخفِّيًا خَلْف شَخصِيةٍ أُخرَى، فَحتَّى وَإِن كان يَكتُب عن الآخرين، فَإنَّه يَتَحدَّث عن نَفسِه، حَيْث كَانَت كِتاباته عُمومًا، وعن الآخرين بِشَكلٍ خاصٍّ، تُمثِّل سِيرة ذَاتِية لَه، فَفِي كِتابه (تَمارِين الإعْجاب) وَهُو الكتَاب الوحِيد الذِي أَلفَه عن زُمَلائِه مِن الكتَاب والْفلاسفة، عِبارة عن سِيرة ذَاتِية لَا تُفْصِح عن نفْسهَا مُبَاشرَةً، بل سِيرة ذَاتِية مُحَوّلَة، إِنَّه يَكتُب عن الآخرين، وَلَكنَّه يَحُوّل هذَا الكلَام على ذَاتِه.(6) وهو يُؤَكِّدُ ذلك عندما يعتبر أَنَّ لِلنَّقْدِ مَعَنَىً مَعْكُوسًا، فَعَلَيْنَا أَنْ نَقْرَأَ الْآخَرِينَ لِنَفْهَمَ أَنْفُسَنَا.(7)

وكيْف لَا يَكُون كَذلِك، وقد ارتقى في مراتب نفي الذات والتواري خلف الآخرين، حتى تَمنَّى لَو أنَّ شخْصًا آخر عاش حياته نِيابة عَنْه، لَيْس مُهمًّا أن يَكُون إِلَها أو بزاقَا.(8) فالمهم بالنسبة له أن لا يعيش هذه الحياة، بغض النظر عن مكانة البديل، سواء كان رفيعا (إلها) أو كان وضيعا (بزاقا). بل بلغ به التجرّد ونفي الذّات حدّاً يجعله يَصبُو إِلى لَيالِي الأنِين، دُون اكتِراثٍ، وَكَأن الأنِين مُتعلِّق بِشَخصٍ آخر.(9)

وهذا الأسلوب في الكتابة، جعل التَّمْيِيز بَيْن عَرضِ سيوران لِأفْكاره، وعرْضه لِأفْكَار الآخرين-وَهذِه سِمة بَارِزة فِي كِتابَات سِيورَان- أمراً غاية في الصعوبة، إن لم يكن مستحيلا، إِذ لَا تَخلُو فِقْرَة مِن كِتاباته، مِن الاسْتدْلال بِأفْكَارٍ يسْتمدُّهَا مِن مَصادِر مُختلفَةٍ، مِن الدِّيانات القديمة والتَّاريخ والْفلْسفة والسِّياسة والْأَدب، وَحتَّى مِن مَواقِف حَياتِه اليوْميَّة، (كان يُسوِّق حُكمَه على لِسَان عَجُوزٍ صادفَهَا فِي عِيادة، أو مَجنُونٍ جالسه أَثنَاء زِيارة مُسْتشْفَى لِلْأمْراض العقْليَّة) أيْ أَنَّه يُحَاوِل أن يَنطِق بِأفْكاره مُسْتعينًا بِألْسِنة الآخرين.

وَعلَى الرَّغْم مِن أنَّ هُنَاك الكثِير مِن النُّقَّاد، الَّذين يروْن أنَّ حَيَاة سِيورَان "مِثْماهْيَّة" مع فِكْره، إِلَّا أَنَّه فِي المقابل هناك من يُشكِّك فِي هَذِه الفرْضيَّة، ويعْتَبر أنَّ حياته لَم تَكُن مُتناسقة مع فِكْره بِشَكلٍ كبيرٍ، فَمِن جِهةٍ، على الرَّغْم مِن تغنِّيه بِشَكلٍ دَائِم بِالانْتحار، إِلَّا أَنَّه مات إِثْر الشَّيْخوخة، وَمِن جِهةٍ أُخرَى، فقد تَغنَّى كثيرًا بِالْعدميَّة والْعبثيَّة واللَّا جَدوَى واللَّا مَعْنى، إِلَّا أَنَّه استمَر فِي الكتابة لِمدَّة نِصْف قَرْنٍ، مِمَّا يَعنِي أَنَّه كان يَجِد مَعنَىً وجدْوىً مَا فِي كِتاباته.(10)

ثانياً: الْأُسْرَة وَجَنَّةِ الطُّفُولَةِ

يرى "سِيورَان" فِي عَالَم الطُّفولة الحَد الفاصل بَيْن عَهْد الجنَّة فِي مَسقَط رَأسِه بِبلده الأصْلِي "رُومانْيَا"، وَعهد جحيم "السُّهَاد"، الذِي لَوَّن حَياتِه بَعْد ذَلِك بِلَون اليَأس والانْحدار، وضاعف إِحْساسه بِالنَّفْي دَاخِل "فرنْسَا"، الحَد الفاصل بَيْن مِنطَقة الضَّوْء التِي نُفي مِنهَا "سِيورَان الطِّفْل"، والْفضاء المعْتِم الذِي سَيرَى وِلادة سِيورَان الفيْلسوف، وَبذَلِك تَكُون حَيَاة الطُّفولة بِالنِّسْبة لَسيوران، بديلا عن الفشل الفرْدِيّ مِن جِهةٍ، وعن انحِطاط أُمَّةٍ وَعَياء حَضارَةٍ مِن جِهةٍ أُخرَى.[11]

يُضَاف إِلى ذَلِك-وَهُو يَتحدَّث عن الأمْر بِكلِّ مَرارَةٍ وَأسِفٍ- أَنَّه لَم ينل رِعاية أُسرِية وَأمُومة كَافِية خِلَال مَراحِل حَياتِه الأُولى.[12] وَحتَّى سِنِّ العشْرين، كان لَديْه احتِقار عميق لِأمِّه، لِاعْتقاده أَنهَا كَانَت سَطحِية.[13] وَهذِه العلاقة السَّيِّئة تُعَدّ أحد الأسْباب التِي جعلتْه يَتخِذ موْقفًا مِن الزَّوَاج والْإنْجاب، فلم يَتَزوَّج ولم يُنْجِب أَبنَاءً.[14] لذلك هو يَعتَبِر أنَّ الَّذين عَاشُوا بِشَغفٍ، هُم الَّذين مَاتُوا ولَا شَيْء يَخلُفهم وراءَهم.[15]

ويَذكُر فِي العدِيد مِن المقابلات، تلك الحادثة التي يستدعيها من طفولته وذلك عِنْدمَا شعر فِيها بِنوْبةٍ قَويَّةٍ مِن اليأْس، فألَقَى بِنفْسه قائلا: "لَا يُمْكنني تَحمُّل هَذِه الحيَاة بَعْد الآن" فقالتْ لَه أُمِّه التِي كَانَت تَجلِس بِالْقرْب مِنْه: "لَو كُنْت أَعرِف أَنَّك لَن تَتَحمَّل الحيَاة، لَكُنت أُجْهضَتك وارْتَحْتُ." وقد ترك ذَلِك انْطباعًا كبيرًا فِي نَفسِه، فَهُو لَم يجْرحْه، لَكنَّه كان مُهمًّا لِلْغاية لِكيْ يَكتَشِف أَنَّه مُجرَّد حَادِث، فلماذَا يَأخُذ الأمْر على مَحمَل الجِد؟" وَفِي الواقع كُلَّ شَيْء بِدون جَوهَر.[16] كما جعلته تلك الحادثة يَشعُر دائمًا بِأَنَّه لَعنَة، وقد كان لَها تأْثيره على حَياتِه، خاصة على كِتاباته التِي اتّسمَت بالسوداويَّة والْكآبة.[17]

ولَا يَختَلِف الأمْر كثيرًا عِنْدمَا يَتحدَّث عن وَالِدِه، الذِي يَصفُه على أَنَّه شَخْص يَفتَقِد إِلى الحنَان، حَيْث يُعانِقه دُون إِفاضة وَدُون دِفْء وَدُون حَرَكات اسْتعْراضيَّة، وَفِي أَحسَن الأحْوال يقَبِّله قُبلَة مُحتشمَة جَليدِية.[18] وَلَربمَا يَرجِع ذَلِك لِكَون والده كان كاهنًا.[19] حَيْث تطبَّع بِذَلك الطَّبْع نَتِيجَة مِهنَته، وَإِن كان "سِيورَان" لَم يَتحدَّث عن إِرغَام وَالِدِه لَه على تبنِّي أيِّ أَفكَارٍ دِينيَّةٍ.

ثالثا: الْإِنْسَانُ حَيَوَانٌ مُسَهَّدٌ

إِن المرض يُمثِّل رافدًا مُهمًّا مِن رَوافِد فلْسفَة سيوران، ويلْعب دوْرًا أَساساً، فِي وضع خطوطها العريضة وفي تطوُّرهَا، لَيْس بِوصْفه مَوضُوعا فَلسفِيا فحسْب، بل بِوصْفه إِشْكاليَّة شَخصِية، عايشَهَا وَكتَب عَنهَا بِنفْسه.

ونظرًا لِأهمِّيَّة المرض فِي فَلسفَة "سِيورَان"، فقد تناوله بِتفْصِيلٍ أَكثَر، مُحاوِلا أن يُبيِّن أنَّ التي تظهِر على الجسد، هِي أَعرَاض المرض فقط، بيْنمَا تَتَجلَّى حقيقَته فِي أنَّ الرُّوح -وآلام النَّفْس المضْطربة والمتضايقة – والتي يُمْكِن مُشاهدتهَا مِن خِلَال مُعانَاة الجسد. [20] فالْمنْبع الحقيقيَّ لِلْمرض هُو مُعانَاة الرُّوح، وَلكِن الجسد هُو الذِي يَدفَع ثمن هَذِه المعاناة، وَالذِي يُمْكِن مِن خِلَال العلامات التِي تَظهَر عليْه، مَعرِفة مدَى تَألَّم الرُّوح وشقائهَا.

وَإِن كَانَت الرُّوح هِي التِي تَتَألَّم، والْجَسد هُو الذِي يَدفَع الثَّمن، فَإِن العقْل هُو المسْتفيد الأكْبر -فِي نظر "سِيورَان"- مِن هَزائِم الجسد، حَيْث يَزْداد ثَرَاءً على حِسابه، مَا يجْعله يَفرَح ويهلِّل لِمآسِيه.[21] فَمِن خِلَال هَذِه المآسي يَستطِيع الإنْسان أن يُدْرِك مَا هُو جَوهَرِي، وبالتَّالي لَيْس على الإنْسان أن لَا يمَارِس أيَّ مِهنَةٍ، بل أن يَبقَى طِيلة النَّهَار مُضْطجِعًا، وأن يَئِن فقط.[22] فالْمَرض النَّاجم عن اضْطرابات الرُّوح، والْمتجلِّي فِي مُعانَاة

الجسد، يُمْكِنه أن يُؤدِّي وَظِيفَةً إيجابيَّة، تَتَمثَّل فِي تَحفِيز العقْل، ودفْعه لِخَوض تَجرِبة وَعْيٍّ أَكثَر عُمْقًا، تَمكنُه مِن إدرَاك مَا هُو جَوهَرِي فِي هَذِه الحيَاةِ.

كمَا أنَّ المرض هُو الذِي يُضْفِي على تجْربتنَا الحياتيَّة صِفة الحقيقة، وَلذَلِك فَإن "سِيورَان" يرى أنَّ الأصحَّاء لَيسُوا حقيقيِّين، أَنهُم يمْلكون كُلُّ شَيْء عدَا الكيَان.(23) وَذلِك لِأنَّ البشر لَا يتذكَّرون إلَّا مِحنهم، مِمَّا يَعنِي أنَّ المرْضى والْمضْطهدين والضَّحايَا، هُم مِن يَخرُجون بِمكاسبٍ مِن هَذِه الحيَاة، فالْمحْظوظون (الأصحَّاء) يمْلكون حَيَاة ولَا يمْلكون ذِكْرى حَيَاةٍ.(24)

فالْبَشر يُسيْطرون عَادَة على أحْوالهم مَهمَا كَانَت مُتناقضة وَحَادَّة، ويفْلحون فِي إبطَال مفْعولهَا عِنْدمَا يكونون أصحَّاء، فالشَّخْص المتوازن يَنجَح دائمًا فِي إخفَاء أعْماقه، لِأنَّ الصِّحَّة تَفتَرِض هربًا مِن مُوَاجهَة النَّفْس، وفرارًا مِن الذَّات. أَمَّا الشَّخْص المرِيض، فَهُو يَتَصرَّف بِشَكلٍ مُخْتَلِفٍ، إنَّه يعيش أحْواله فِي ذَاتِه، يُوَاجِه الحُزن بِالْحزْن، ويعانق كُلَّ "تِراجيديًّا" ويعانيهَا بِشَكلٍ "تِراجيديٍّ"، إنَّه ذات ولَا شَيْء آخر، وَإذ كان يَتَماهَى مع مَواضِيع رُعْبِه أو تعاطفه، فَلأَن المواضيع لَا تُمثِّل بِالنِّسْبة إلَيه سِوى أَشكَالٍ مُتَنوعَة مِن ذَاتِه، أن تَكُون مريضًا يَعنِي أن تَتَزامَن تمامًا مع ذَاتِك.(25)

والْجدير بِالذِّكْر، فِي سِيَاق تَفصِيل "سِيورَان" لِطبيعة الأمْراض وتمْييزهَا عن بعْضهَا، تأْكيده على أنَّ الأمْراض الحادَّة القاتلة، لَيسَت هِي التِي تُوثِّر فِينَا، بل التِي تُؤثِّر هِي الأمْراض الصَّامتة الملِحة المسْتمرَّة المحْتملة، حَتَّى تُصْبِح جُزْءًا مِن رُوتينَنَا اليوْمِي، وتقوِّضنَا بِذَات الكفاءة التِي يُقَوضنَا بِهَا الزَّمن.(26) وَلعَل أَبرَز تلْك الأمْراض المزْمنة، هُو المرض الذِي يَتَصاعد مِن التَّجربة التَّاريخيَّة، وَيفرِض نَفسَه بِوصْفه نَتِيجَة طَبيعِية وَحِيدَة لِلْأزْمنة المقْبلة، هُو الكآبة، مرض القرْن والأجْيال المقْبلة.(27)

أَمَّا المرض الذِي يُؤكِّد سِيورَان مِرارًا وتكْرارًا على أَنَّه مدين لَه فِي كُلِّ مَا حَقَّق مِن نجاحَاتٍ، وَكُل مَا كتب مِن نُصُوصٍ وَكُتبٍ، ويمثِّل أَكبَر مَأْسَاةٍ عاشهَا فِي حَياتِه، واسْتمرَّتْ معه لِسنوَاتٍ طَوِيلَةٍ، وطبعتْ بِمأْساويَّتهَا بَقيَّة أَيَّام حَياتِه، هُو الأرق، حَيْث فقد فِي العشْرينيَّات مِن عُمْرِه كُلَّ قُدرَةٍ على النَّوْم، وأصْبح يَتَجوَّل فِي شَوارِع مدينَته وحيدًا دُون رفيق.(28)

حَيْث كَانَت كُلُّ لَيلَةٍ مِثْل غيْرهَا، كُلُّ لَيلَةٍ كَانَت أَبدِية، يَنتَمِي فِيهَا إلى عَشِيرَة الَّذين لَا ينامون، الَّذين يُمْكِن أن يَغفِر لَهُم كُلَّ شَيْءٍ ويبرِّر كُلَّ شَيْءٍ، إذ هُنَاك عُيُون لَم تَعُد تَستطِيع أن تَتَعلَّم مِن الشَّمْس شيْئًا، وأرْواح عَانَت مِن لَيَالٍ لَن تَتَعافَى مِنهَا أبدًا.(29)

وَلقَد غَيَّر الأرق مَجرَى حَياتِه وَموقِفه الفكْرِي مِن العقْلانيَّة والْفلْسفة إلى النقِيض تمامًا.(30) فلَقد كَشفَت لَه تَجرِبة الأرق تَفاهَة وبطْلَان كُلِّ شَيْءٍ، حَيْث لَا يُوجَد شَيْء حَقيقِيّ وَكُل مَا نعيشه وَنَراه مُجرَّد أَوهَامٍ، فالْبَشر يعيشون فِي مَمْلَكة الظِّلَال والْأوْهام.(31)

كما يُؤكِّد سِيورَان أنَّ السَّبب الأساسيَّ وَرَاء رَفضِه لِلْفلْسفة والابْتعاد عَنهَا، هُو الأرق، لِكَون الفلْسفة قد خَيبَت أَملَه، حِين أَدرَك أَنهَا لَن تُفيده فِي شَيْءٍ، ولن تَجعلَه يَتَحمَّل الحيَاة، خَاصَّة فِي تِلْك اللَّيالي التِي كان يُعَانِي فِيهَا مِن الأرق.(32) وَلذَلِك فَإن اللَّيالي التِي لَم يَنم فِيهَا، أَحدَثت قَطِيعَة مع عِبادة أصْنامه الفلْسفيَّة، حَيْث أَدرَك أَنَّه فِي لَحَظات اليأْس الشدِيد، لَم تُساعِدْه الفلْسفة على الإطْلاق، لِأنَّهَا لَا تُقدِّم أيَّ إجابَاتٍ مُفيدَةٍ، لِذَا تَحوَّل إلى الشِّعْر والْأَدب.(33)

ونظرا لأهمية الأرق في حياته وفلسفته، يفرد له عناوين خاصة، ففي كتابه "على مرتفعات اليأس"، يتناول الأرق في مقالاتٍ متعددةٍ منها (فضائل الأرق the blessings of insomnia) و(الإنسان حيوان

مسهد L'homme est un animal insomniaque / man, the insomniac animal) وفي كتابه(رسالة في التحلل A Short History of Decay) يتناوله تحت عنوان (دعاء الأرق Invocation (INVOCATION À L'INSOMNIE /to Insomnia

وهو ينظر إلى الأرق نظرة إيجابية رغم كل ما فيه من آلام وعذاب، لأنه أَثْنَاءَ الْأَرَقِ يُوَاسِي نَفْسَهُ، بِاعْتِبَارَ أَنَّ سَاعَاتِ الْأَرَقِ هِيَ سَاعَاتٌ يَنْتَزِعُهَا مِنْ الْعَدَمِ، وَمَا كَانَ لَهَا أَنْ تَكُونَ ملْكًا لَهُ وَلَمْ تَكُنْ لِتُوجدَ أَبَدًا لَوْ كَانَ نَائِمًا.[34] حيث يفسح له الأرق مساحة واسعة من التفكير في إشكاليات الحياة الحقيقية، ويفكر في نفسه بشكلٍ خاصٍ.

ويرى سيوران أنَّ المعْرفة الحقيقيَّة تَنبُع مِن سهرٍ فِي ظُلمات اللَّيْل، إنَّ الأرق هُو مَا يُمَيزنَا عن الحيوانات، بل هُو مَا يُميِّز بَيْن أَبنَاء الجنْس الواحد، فلم يعرف التَّاريخ فِكْرَة خِصْبَة وإبْداعيَّة أنْتجَهَا إنسَان نَائِم، ولم تجد أقول النّهار حَقِيقَة وَاحِدة مُبْهِجة وَصَحيحَة أو أنقذت شرف العقْل، ذَلِك لِأنَّ ضَوْء النَّهَار مُعَادٍ لِلْأفْكار، والشَّمْس تَحجُبها؛ فَهِي تَزدَهِر فقط فِي مُنتَصَف اللَّيْل، حَيْث يُلْهمنَا الحقائق المطمئنة بِخصوص أيِّ شَيْء.[35]

وَفِي المقابل لِلْأرق بَعْض المساوئ، لِكوْنه أَكثَر التَّجارب الإنْسانيَّة ثَرَاء، إنَّها تُطبِّع بَقيَّة الأيَّام، إنَّ النَّوْم هُو سِرُّ الإنْسان وَسِر الحيَاة، بل هُو مَا يَجعَل الحيَاة مُمْكِنة، حَيْث يُتَاح لِلْإنْسان أن يَنسَى ويبْدأ يوْمًا جديدًا، وعنْدَمَا يَتَعرَّض الإنْسان لِلْحرْمان مِن النَّوْم، فَإنَّه قد يَرتَكِب أيَّ شَيْءٍ أو أيِّ فِعْل غَيْر مَسؤُولٍ.[36] لِأنَّ الأرق يُضخِّم أَدنَى انزِعاجٍ، ويحوِّله إلى نَكَباتٍ، إنَّه يَسهَر على جِراحِنَا ويمْنعهَا مِن أن تُشفَى.[37] كمَا أَنَّه يُتيح لِلْألم أن يَقُوم بِمهمَّته على أَكمَل وَجْهٍ، حيث يُزْهِر ويتجَسَّد وَيصبِح لَا نِهائِيًّا مِثلَه مِثْل لَيْل الأرق المُمتد.[38]

وقد يَصِل المؤرّقون إلى دَرجَة الرَّغْبة فِي الانْتحار، لِأنَّ الفرْق بَيْن النَّوْم وَعدَم النَّوْم، يُشْبِه الفرْق بَيْن الجنَّة والْجحيم، حَيْث إنَّ البشر يسْتطيعون النَّوْم فِي الجنَّة، بيْنمَا لَا يسْتطيعون النَّوْم فِي الجحِيم، والْحرْمان مِن النَّوْم، هِي إحْدى العقوبات التِي يُعَاقِب بِهَا اللَّه الإنْسان، وَذلِك حِين عاقبه بِالْحرْمان مِن النَّوْم وَمنحَه المعْرفة، بل إنَّ الأرق يُعدُّ العقوبة الأشدَّ قَسوَة، وَالتِي يُمْكِن أن يُوَقعهَا اللَّه على البشر.[39]

فالْأَرق فِي نظر سِيورَان، يجسد هذا التناقض العجيب، فهو يمْنحنَا نُورًا لَا نَرغَب فِيه، وإن كُنَّا دُون وَعْي نَتُوق إلَيه، ونطالب بِه رغْمًا عَنَّا وضدّ إرادتنا، فمن خِلاله وَعلَى حِسَاب صِحَّتنَا، نَبحَث عن شَيْءٍ آخر، عن حَقائِق خَطرَةٍ وَضَارَّةٍ، عن كُلِّ مَا منعنَا النَّوْم مِن تَبيُّنِه، إلَّا أنَّ حالات الأرق لَا تُحَررنَا مِن شِرَاك السُّهولة والْوَهْم، إلَّا لِتضعنَا أَمَام أُفُقٍ مَسدُودٍ، أَنهَا تَسلُّط الضَّوْء على مَآزِقنا.[40]

رابعا: سِيُورَانْ بَيْنَ غُرْبَتَيْنِ

أ- رُومَانْيَا الْوَطَنُ وَالْجَحِيمُ

لَطَالمَا تَحدَّث "سِيورَان" عن بَلدِه رُومانْيَا بِأسْلوبٍ غَايَة فِي السَّلْبيَّة، وفيه الكثيرُ من الحزنِ والأسى، وَهِي رَدَّة فِعْلٍ طَبيعِيةٍ، لِمفكِّرٍ شابٍّ مِن فَترَة مَا بَيْن الحرْبيْنِ، المضْطربة سِياسِيًّا واجتماعيّا فِي رُومانْيَا.[41] فقد كان هو نفسه أحد أطراف هذا الصراع السياسي والاجتماعي، إذ كان يرى أن الصِّرَاع بَيْن الأجْيال، هُو مِفتَاح كُلِّ الصِّراعات، والْمبْدأ التَّوْضيحيُّ لِكلِّ الأحْداث.[42]

وَفِي السياق ذاته يُشير "سِيورَان" إلى أَنَّه هُو وجيله، كَانُوا فِي صميم مَعْرَكة مَجَايلَةٍ ضِدَّ الأجْيال السَّابقة، فَفِي فَترَة الثَّلاثينيَّات فِي رُومانْيَا، كَانُوا يخوضون مَعْرَكة ضِدَّ الشُّيوخ الَّذين أصابَهم الخرف، أيْ كُلَّ الَّذين تخطَّوْا الثَّلاثين، وأن تَكُون شابًّا يَعنِي بِالنِّسْبة إلى جيله، هو أن تَمتَلِك تِلْقائيًّا شيْئًا مِن العبْقريَّة، حَتَّى وَإن

كان ذَلِك يَبدُو غُرورًا، إِلَّا أَنَّه غُرُور يَعبُرون بِه بِسخْط عن رَغبتِهم فِي تَطوِيع التَّاريخ، والتَّموقع فِيه وتحْفيزه على الجدِيد، مَهمَا كان الثَّمن، حيث كَانَت الحماسة على رَأْس جَدوَل أعْمالهم.[43]

ويبدو أن "سيوران" وجيله قد خسروا معركة المجايلة، لذلك تجده يَصِف نَفسَه حِينًا -وهو في غربته- بِأَنه قَادِم مِن بلد لَم يَعرِف السَّعادة يوْمًا.[44] وأحايين أُخَر يرى أَنَّه قد أتى مِن بلدٍ ارتقَى فِيهَا الإخْفاق إِلى مَرْتَبة الفريضة، وَأَصبحَت عِبارة "لَم أَستَطع أن أُحقِّق ذَاتِي" هِي اللَّازمة المصاحبة لِكلِّ بَوْحٍ.[45] كمَا يَصِف الرُّومانيِّين بِأَنَّهم شَعْب مِن الانْعزاليِّين A People of Solitaries.

وَيصِف رُومانْيَا بِأَنَّهَا بُقعَة أُوروبِّيَّة، يَكَاد يَلتَزِم فِيهَا الجمِيع بِتجاوز الحُدود وإساءة الأدب، والْبَوْح والاعْتراف الفوْرِيّ والْمجَّانيُّ غَيْر المحْتشم، بُقعَة يَعرِف فِيهَا الجمِيع كُلّ شَيْءٍ عن الجمِيع، وَتتخِذ فِيهَا الحيَاة المشْتركة هَيئَة كُرْسِي اعتِرافٍ عُموميٍّ، حَيْث السِّرُّ أَمْر لَا يُمْكِن تَخيلُه أبدًا، وحيْث تُفْضِي الثَّرْثرة إِلى الهذيان.[46]

ويصرح "سيوران" بأنه يكرهُ شعبهُ وَبلدهُ أولئِك الفلّاحين الخالِدين المفتونين بِسُباتِهِم وَخُمولِهُمُ، فكُلُّ ما قدّموهُ لهُ مُحيرٌ، يُغذّي وَيُثيرُ الاشمِئزاز وَيَجعلُهُ يَشعُرُ بِالخجلِ لِأنّهُ يَنحدِرُ مِنهُم، وَلم يَتوَقّف أبدًا عن شتمِ الحادِثِ الّذي تسبّب في وِلادتِهِ بيْنهُم، فهوَ يَرفضهُم وَيَرفُضُ أبديْتُهم وَيَقينُهُمُ وَتبجيلُهُمُ الجيولوجي، ولا فائِدة مِن مسحِ ملامِحِهِم ولا أمل في إيقاظِهِم أوْ تحريكِهِم، حتّى وَصل إلى حدِّ الحِلمِ بِإبادتِهِم، وَلكِن كيْف لِلمرءِ أن يَذبح الحِجارة.[47]

وقد تَعدَّى سُخْط "سِيورَان" بَلدَه رُومانْيَا، ليطال مُحيطهَا الثَّقافيِّ الذِي يَشمَل مِنطَقة البلْقان، حَيْث أَصبَح يَنظُر بِتمعُّن لِأجْداده الَّذين يُسَمّيهِم (ساداتي القدامى) مُتحسِّرًا على كَونهِم كَانُوا معْزولين عن أُورُوبا، وكانوا مُرْهفِين بِكآبةٍ مَجبُولةٍ مِن الوحْشيَّة المكْبوتة، بل ويعْتَرف (لِأجْداده القدامى) بِالْفَضْل لِكوْنِهم جَعلُوه يُولِّد عبْدًا.[48]

وتبعًا لِهَذا الشُّعور، تَبيَّن لَسيوران فِي سِنٍّ مُبَكرَة (فِي العشْرين)، أنَّ البلْقان (المحِيط الإقْليميُّ لِبلده رُومانْيَا) لَم يَعُد قادرًا على مَنحِه أيَّ شَيْءٍ، واعْتَبر أنَّ ذَلِك يُمثِّل مَأْسَاة وميَّزه فِي الوَقت ذَاتِه، فأن يُولد المرْء فِي فَضَاءٍ ثَقافِيٍّ ثَانَوِيٍّ غَيْر ذِي شَأْنٍ، حَيْث أَصبَح الغرِيب إلهيًّا، وهو ما يدفع المرء إِلى التَّرْحال عَبْر الآدَاب والْفلْسفات، والْتهامهَا بِحماسةٍ مَرَضيَّةٍ.[49] فَهُو يُعتَبَر أنَّ انتِماء بَلدِه رُومانْيَا لِمحيط ثَقافِيٍّ هَامشِيٍّ، يُخفِّف مِن علَيْه عِبْء التَّاريخ والمَوْروث، وَيفسِح أمامه المجَال لِلَّحاق بِالْفلْسفة والثَّقافة الأوروبِّيَّة.

وَكُل ذَلِك وصل بِه فِي نِهاية المطَاف، إِلى أَنَّه فِي أَحيَانٍ كَثِيرَةٍ، أَصبَحت تُغْرِيه فِكْرَة انتِحال سُلَالَةٍ أُخرَى، واسْتبْدال أسْلافه الباهتينِ المكدومين المتخمين بِالبؤس، وقد امْتزجوا بِالْوحل، وأخذوا ينئُّون تَحت لَعَنات القُرون.[50] وأن يَقُوم بِقطيعةٍ مع دِينه ومع أسْلافه ومع لُغَته وَبلَدِه، حتى وإِنَّ كانت تِلْك القطيعة تُمثِّل مِحَنة مُروّعَة بلَا شكٍ، وَلَكنهَا مِحنَة مُثيرَة أيْضًا، إِذ يَبحَث عَنهَا بِلهْفة اللَّاجئ.[51] وهو ما تحقق فعلا عندما قرر "سيوران" السفر إلى فرنسا للدراسة ثم قرر الاستقرار فيها، محققا أمنيته في استبدال سلالته وتغيير أسلافه.

ب- بَارِيس...الْمَلَاذُ وَالْمَنْفَى

نَستخْلِص مِمَّا سبق، أنَّ "سِيورَان" كان يَشعُر بِالغربة حَتَّى وهو يعيش فِي وَطنِه رُومانْيَا، فَلَربمَا بِسفره إِلى باريس، كان يَبحَث عن غُربَةٍ أَكثَر عُمْقًا وَحدَة، وَهُو مَا يُمْكِن أن يفْعله أيُّ مَكَانٍ آخرٍ غَيْر باريس، على الرَّغْم مِن أنَّ باريس كَانَت تُمثِّل نُقطَة جَذْبٍ لِكلِّ الشُّعراء الرُّومان، إِضافة إِلى أنَّ هِجْرته إِلى باريس، وَكَأنهَا

كَانَت مُحَاولَة لِلْهروب مِن نَجَاحٍ مُحتَمَلٍ، كان مِن الممْكِن أن يُحَققَه فِي بَلدِه رُومانْيَا، بِاعْتباره أُسْتاذًا جَامعِيا، لِكوْنه يَعتَبِر النَّجَاح أَكثَر الأوْهام فَظاعَة.[52]

وَلذَلِك قَرَّر أن يُهَاجِر (إلى باريس) وَألَّا يَعُود أبدًا لِرومانْيَا، التِي انتهَت بِالنِّسْبة إلَيه، وصارتْ جُزْءًا مِن الماضي بِشَكلٍ نِهائيٍّ، بل إنَّها لَم تَعُد مَوجُودة.[53] وصارتْ (كمَا يَصفُها لِأَحد أصْدقائه) تِلْك البلَاد التِي كَانَت لَهُم، وَلَكنهَا لَم تعد الآن لِأَحد.[54] لَقد أَصبَحت الوطن المتبخِّر.[55] وَلذَلِك قطع كُلّ أَواصِر القرابة مع رُومانْيَا، وَتبنَّى وُجودًا جديدًا، كمَا أَنَّه أَطلَق على نَفسِه اسمًا جديدًا: "إي إم سِيورَان E.M.Coiran."[56]

ولم يَقطَع "سِيورَان" صِلَته بِوطنه رُومانْيَا فحسْب، بل حَاوَل أن يَجعَل مِن فِكْرَة عدم الانْتماء هِي القاعدة، والعَكْس هُو الشَّاذُّ، مُؤَكّدا على فِكْرَةٍ هي كون المواطنة لَم تَعُد إِحْدى سِمَات هذَا العصْر، بل العكْس تمامًا، يَفتَقِد البشر فِي هذَا العصْر لِفكْرة الجنْسيَّة، فلَيْس مِن حقِّ أحدٍ أن يَدّعِي أنَّ هذَا المكَان هُو وَطنُه، فَفِي كُلِّ مُوَاطِنٍ يَكمُن غريب قَادِم.[57]

مَا يودُّ "سِيورَان" التَّأْكيد علَيْه هُنَا هُو أنَّ الغُربة لَا تَرتَبِط بِتَرك الأوْطان، والانْتماء لَا يَرتَبِط بِالْعَيْش فِي بُقعَةٍ مَا، أو حَمْل جِنْسيَّة دَولَة مَا، بل إنَّ الأمْر على العكْس تمامًا، فلَا الجغْرافْيَا ولَا الجنْسيَّة تَمنَح الفرْد انتِماء، كمَا أنَّ الغُربة لَا تَعنِي عدم الارْتباط بِجغْرافْيَا أو عدم حَمْل جِنْسيَّةٍ، فقد يعيش الإنْسان غريبًا فِي بَلدِه الذِي يَحمِل جِنْسيَّته، لِأنَّ الاغْتراب الأكْثر صُعُوبَةٍ هُو الاغْتراب الفكْرِي، وَهذَا مَا يَجعَل مِن باريس أَقرَب إلَيه مِن بَلدَة رُومانْيَا.

إِضافة إِلى ذَلِك، يَنطَوِي الحرْمان (مِن الوطن) على فَوائِد جَمَّةٍ، إِذ يَبعَث الرُّوح فِي المُفكر، حَيْث يَغتَنِي بِكلِّ مَا يَستعْصِي علَيْه، بِكلِّ مَا يُسرق مِنْه، قد يَخسَر وَطنُه، وإن تِلْك لِنعمة كُبرَى، هَكذَا يُصْبِح المنْفِي exiled مُفكرا مِن الحجْم الصغِير، أو صَاحِب رُؤيَةٍ ظَرفِيةٍ، يتنازعه الانْتظار والْخَوْف، ويترَبَّص بِأحْدَاثٍ يتمنَّاهَا أو يخْشاهَا.[58]

وَحتَّى وَإِن كان الانْفصال عن العالم عملا مُهْلِكا، فَإِن المنْفِيّ يَستطِيع أن يُنْجِزه دُون أن يَكُون فِي حَاجَة لِليالي العذَاب والْأَرق، كيْ يَنسَلِخ عن كُلِّ شَيْءٍ، إِذ إِنَّ الأحْداث تُرْغِمه على هذَا، وَهُو بِمعْنى مَا، يُشْبِه المرِيض. وَلكِن ذَلِك لَا يَجعَل المنْفِيّ شخْصًا مُتنحِّيًا مُنْسحِبًا مُتواضعًا مُسْتسْلمًا لِبؤْسه وَحالَة المنْبوذ التِي يعيشهَا، بل إِنَّه طَمُوح وعدْوانيٌّ فِي خيْباته، إِنَّ من فقد كلّ شَيْءٍ يُدّخِر الأمل بالمجد كَمَلاذٍ أخيرٍ، ويَرضَى بِالتَّخلِّي عن كُلِّ شَيْءٍ، مَا عدَا اسْمه.[59]

ولذلك يجب ألّا يتكيف المنفيّ مع حياته في المنفى، حتى يستطيع المحافظة على معاناته وأحزانه وهي أشياء تنفد وتنطفئ شأنها شأن أي شيءٍ آخرٍ، وهو أمر لا يتحقق إلا بحفاظ المنفيّ على حنينه إلى وطنه، لكي يحافظ على جذوة أحزانه متقدة، وحتى لا تخور عواطفه ويجف منبع شقائه، وبالتالي يفقد المصدر الاستثنائيّ لطاقته.[60]

بِكلمَاتٍ أُخرَى، يَلعَب المنْفى دوْرًا جَوهرِيا يُوَازِي الدَّوْر الذِي يلْعبه المرض، فِي تَحفِيز فِكْر الإنْسان، فَحتَّى وَإِن كان المُفكر لَم يَختَر المنْفى، إِلَّا أنَّ ذَلِك يُحَفزّه لِتحْقِيق مَجدِه الشخْصِي، بَعْد أن فقد الصلَة بِأيِّ انتِماء (لِقوْمِيَّةٍ أو دَولَة) يَرغَب فِي تَحقِيق مُجْدٍ لَه، فالْمنْفى يُحرِّر الإنْسان مِن أَمجَاد الجغْرافْيَا والتَّاريخ، وَيَجعلَه يبحَث عن مجدٍ شَخصِيٍّ يَرتَبِط بِاسْمه، وهذا ما يطلق عليه "سيوران" في كتابه "إغواء الوجود" (مزايا المنفى Advantages of Exile).

وَعلَى الرَّغْم مِن تغْنِي سِيورَان بِمزايَا الغُربة والْمنْفى، وتأْكيده على ضَرُورَة أن يَقتَلِع المُفكر نَفسُه مِن كُلِّ جُذُورٍ تَربطُه بِأيِّ مَكَانٍ أو قَومِيةٍ، إِلَّا أَنَّه تَغزَّل بِباريس مُعْتبِرًا إِيَّاهَا (مَنْفَاه الجمِيل)، وأَنهَا المدينة التِي لَا يسْتبْدلهَا بِأيِّ مَدِينَةٍ فِي العالم، وهِي لِهَذا السَّبب تحْديدًا، تُعَد مَصْدَرا لِكلِّ مَصائِبه، لَقد أَصبَح كُلّ مَا عداهَا مُتساويًا فِي نَظرِه، لِدرجة أَنَّه يَتَحسَّر فِي كثيرٍ مِن الأحْيان، على كوْنهَا نجتْ مِن الحرْب، ولمَّ تَهلَك مِثْل مُدُنٍ أُخرَى كَثِيرَةٍ، لَو دُمرت لخلَّصَتْه مِن سَعادَة العَيْش فِيهَا، ولَأَمكَن لَه أن يَقضِي أيَّامه فِي مَكَانٍ آخر، وَلذَلِك لَن يَغفِر لَهَا أبدًا لأَنَّه بِسببِهَا أَصبَح مُنْتمِيًا إِلى مَكَانٍ مَا.[61]

وَلَربمَا يَعُود سبب هذَا الحُبّ والتَّغزُّل، إِلى كوْنهَا تَنسَجِم مع سوْداويَّته وعدميَّته، فَمِن مزايَا باريس أنَّ أَربَعة أَخمَاس سُكَّانِهَا يموتون غمًّا، أَمَّا البقِية الباقية مِن أَصحَاب الامْتيازات، فلَا يكْترثون لِذَلك، حَتَّى أَنهُم يُحْسدون الأكْثريَّة الغالبة على الميزة التِي تَنفَرِد بِهَا، إِنَّهم يعْرفون على الأقلِّ بِماذَا يموتون.[62] كما أنَّ باريس هِي أَبعَد نُقطَةٍ عن الفرْدوْس، ولذَلِك تُعَد مكانًا مِثالِيًّا، يطيب فِيه لِلْمرْء أن يَشعُر بِالْيأْس.[63]

خامسا: منافٍ داخل المنفى (اللغة والفكر)

أ- اللُّغَةُ وَطَنٌ أم مَنْفًى؟

تُعتَبَر اللغَة شيْئًا مُهمًّا فِي نظر "سِيورَان"، إِلى دَرجَة أنَّ الإِنْسان لَا يَسكُن وطنًا فِي نَظرِه، بل يَسكُن لُغَة، وَلذَلِك فَهِي الوطن ولَا شَيْء آخر.[64] وَإِن مُحَاولَة الكاتب أن يُغيِّر لُغتَه هِي أَشبَه بِالْمغامرة، إِذ سَيشُق عليْه التَّخَلِّي عن الكلمات التِي حَملَت ماضيه، وَمن يَتَبرَّأ مِن لُغته كيْ يَتَكيَّف مع لُغَةٍ أُخرَى سَيُضطَر لِتبْدِيل هُويَّته، بل وَتبدِيل حَتَّى خيْباته، إِنَّه كمن يُقبَل على الخيانة بِكلِّ بُطُولَةٍ، وَبذَلِك سيقْطع الصلَة مع ذِكْرياته، وَإِلَى حدٍّ كبيرٍ مع نَفسِه.[65]

فَاللُّغَةُ كَمَا يَصِفُهَا "سِيُورَانْ"، تَكَاد تكون قرينَة الوَطَنِ والهُوِيَّة والخَيبة، وَلَكِنَّ شَغَفَهُ بِالْغُربَةِ دَفعه إِلى ارْتِكابِ الخِيَانَةِ، وَتَغْيِيرَ وطنه وهُويَّته وخيباته للمَرَّة الثَّانية، حِينُ تَخَلَّى عَن لغَته الرُّومَانيَّةِ، وَقد سبق له التَّخلِّي عن رُومَانيَا نَفْسِهَا.

فقد أَعلَن "سِيورَان" بعد أن وصل إِلى باريس، القطيعة مع اللغَة الرُّومانيَّة، حِين تَبيَّن لَه أَنَّه لَا يُمْكِنه أن يَصنَع شيْئًا بِلغته الرُّومانيَّة فِي باريس، فمَا جَدوَى الكتابة بِالرُّومانيَّة فِي ظَرْفٍ كَهذَا؟ وَلمَن سيكْتب؟ إِذَا كان النِّظَام الحاكم (في بلده رومانيا) لَا يَقبَل كِتاباته وَنصُوصه، لِأَنَّهَا فِي نَظرِه نُصوصًا وَقحَة، فَمعضِلة الأنْظمة أَنهَا تُرْغِم الشُّعوب على التَّفاؤل، وترْفض الخوْض فِي القضايَا الشَّائكة، ولَا تَدرِي أنَّ هُنَاك مَسائِل لَا تَقبَل الحلول، مَسائِل مُرتبطَة بِمصير الإِنْسان ورجْس التَّاريخ.[66] فِي الجِهة المقابلة، لَو أَرَاد الكتابة لِلْفرنْسيِّين، فلن يُجْدِي ذَلِك نفْعًا، لِأَنَّ الكاتب لَا يَستطِيع أن يَفرِض اسْمه عِنْدمَا يَكتُب بِلغةٍ إِمَّا يجْهلهَا المثَقَّفون أو يحْتقرونهَا.[67]

بِكلمَاتٍ أُخرَ، أَيقَن سِيورَان أنَّ الكتابة بِاللُّغة الرُّومانيَّة غَيْر مُجْدِيةٍ، لِأَنَّ نُصُوصَه لَا تَصِل إِلى النَّاطقين بِهَا فِي وَطنِه الأصْلِي، حَيْث يَمنَع النِّظَام الحاكم فِي رُومانْيَا وُصولَهَا إِلى القُراء، أَمَّا فِي فرنْسَا، فَهِي لُغَة لَا تَنَال أيَّ اهتِمامٍ، وكيْف يَكُون لَهَا ذَلِك فِي بلد لُغَته لُغَة الثَّقافة والْفنِّ.

ولم يَعُد سِيورَان لِلْكتابة بِاللُّغة الرُّومانيَّة أبدًا، بَعْد أن نُشِر بِهَا كُتبَه الأرْبعة الأُولى، حَتَّى خِطاباته إِلى أَصْدقائه فِي رُومانْيَا، كان يَكتُبها بِالْفرنْسيَّة، رُبمَا كَانَت تِلْك القطيعة مع الوطن، ومع اللغَة هِي اسْتدْعاء لِذَلك الشُّعور الجارف بِالْوحْدة، الذِي يَرَاه النَّبْع الحقيقيَّ لِلْفلْسفة والْكتابة.[68]

ولذلك ارتمَى سِيورَان فِي أَحضَان لُغَةٍ جَدِيدَةٍ هِي اللغَة الفرنْسيَّة، على الرَّغْم مِن كَونِه يَنحَدِر مِن أُسرَةٍ لَم يَكُن أيُّ مِن أفْرادهَا يُجيد غَيْر الرُّومانيَّة والْمجريَّة، ولَا يعْرفون شيْئًا عن الفرنْسيَّة، ولم يَتَعرَّف عليْهَا إِلَّا

عِنْدمَا بدأ مُتَابعَة دُروسه فِي بُوخارسْتْ، حِينهَا اكْتشَف أنَّ المثقَّفين هُنَاك يتكلَّمون الفرنسية بِطلاقةٍ، بيْنمَا هُو لَا يَعرِف عَنهَا شيْئًا.(69)

وَمُنذ تِلْك اللَّحْظة نشَأ لَديْه بَعْض الغيْظ تُجَاههَا وقد استمر هذا الغيظ طويل، بل وازْدَاد عِنْدمَا اكتشَف فِي باريس، أَنَّه لَم يَستَطِع التَّخَلُّص مِن لَكنَة بَلدِه الأصْلِي، ولَا يستطِيع النُّطْق مِثْل السُّكَّان المحلِّيين، فلم يَكُن أمامه مِن سبيلٍ سِوى أن يَكتُب متَّلهم، بل رُبمَا كان يَملِك مِن الغُرور والجنون، مَا يجْعله يُحَاوِل أن يَكتُب أَفضَل مِنْهم.(70)

وقد حَاوَل "سِيورَان" الهُروب مِن مُشْكِلة عدم إِجادة اللغَة الفرنْسيَّة مِن خِلَال النُّطْق والمحادثة، بِاللُّجوء إِلى الكتابة، وَلَكنَّه اكتشَف فِيمَا بَعْد صُعُوبَة تِلْك الخُطوة، وأنَّ تَغيِير لُغَة الكتابة، كان لَه آثاره السَّلْبيَّة، فعنْدَمَا يُغيِّر الكاتب لُغتَه يَكُون أَشبَه بِمن يُحَاوِل أن يَكتُب رِسالة غَرامِية بِواسِطة مُعجَمٍ.(71)

إِضافة إِلى أنّه أَقدَم على تَغيِير لُغته الأُم فِي وَقْت مُتَأخر جِدًّا، حَيْث بدأ الكتابة بِاللُّغة الفرنْسيَّة فِي سِنِّ السَّادسة والثَّلاثين.(72) ولذلك يَحْتاج إِلى قَهوَةٍ وسجائر وقواميس، مِن أَجْل كِتابة جُملَةٍ وَاحِدةٍ فِي هَذِه اللغَة العصِية النَّبيلة المحْترمة أَكثَر مِمَّا يُحِب، وَلَكنَّه لَم يَنتَبِه لِذَلك بِكلِّ أسفٍ إِلَّا بَعْد أن فَاتَه أَوَان الابْتعاد والتَّخلِّي عَنهَا.(73)

وَفِي رِسالةٍ لِأَحد أصْدقائه، يعترِف سِيورَان بِأَنه يُعَانِي مِن مَشاكِلَ مع اللّغَة الفرنْسيَّة، والّتي تُنسَب إِلَيه فِيهَا رَفاهِية لَا يمْتلكهَا، أمّا لَو أَرَاد سَرْد قِصَّة علاقَته مَعهَا، فَإِنهَا أَشبَه بِسَرد كَابُوسٍ، فَهِي دَقِيقَة إِلى حدٍّ مُرْعِبٍ، مَشحُونة بِالتَّعب والْحشْمة، حيِيَّة حَتَّى البذاءة، إِنَّ دلالتهَا صَافِية، ولَا بُدَّ مِن اسْتعْمالهَا بِتحفُّظٍ، فلَا تُوجَد كَلمَة وَاحِدة لَا يَشعُر بِالدُّوار أَمَام أناقتهَا المنْهكة، لَيْس هُنَاك أثر لِلتُّرَاب أو الدِّمَاء أو الرُّوح فِي كلماتهَا، إِنّهَا مَحشُورة فِي تَراكِيبَ مُتَيبسَةٍ ذاتِ وَقَارٍ جِيفيٍّ، يَحصُرها ويحدِّد لَهَا مَواقِع يَصعُب حَتَّى على اللَّه أن يُخْرجَهَا مِنهَا.(74) لِذَلك تَبدُو اللغَة الفرنْسيَّة، هِي اللغَة المثاليَّة لِلتَّعْبير عن مَشاعِرٍ مُلتبسَةٍ.(75)

كمَا أنَّ الهوس بِاللُّغة كان دَائِم الحُضور فِي فرنْسَا، وليْس بعيدًا أن تُصْبِح وَسِيلَة التَّفْكير وواسطته، مَرفُوعة فِي فرنْسَا إِلى مَرْتَبة المَوْضوع الوحِيد لِلتَّفْكير، بل رُبمَا أَصبَحت بديلا عن المُطلق، وَهذَا يَعنِي أَنَّه لَا يُمْكِن أن يَكُون الفكْر حيًّا ومؤثِّرًا، لأنّ الكلِمة حلت محلَّ الفكْرة، وأصْبح الحامل أَكثَر أَهَميَّة مِن الحمولة، وأصبحت أَدَاة التَّفْكير وكأنها التَّفْكير نَفسُه، ويبْدو أنَّ الآدَاب الفرنْسيَّة اسْتسْلمتْ مُنْذ زمن طويل إِن لَم يَكُن مُنْذ البداية إِلى فِتْنَة الكلِمة واسْتبْدادهَا مِن ثمَّ رِقَّتهَا وهشاشتهَا ورهافتهَا القُصوى وتصنُّعهَا أيْضًا.(76)

وَكُلّ ذَلِك جَعلَه يَندَم على اختِيار اللغَة الفرنْسيَّة، وكان عليه أن يَخْتار أيَّ وسطٍ آخر غيْرهَا، لِأَنه مُتَنافِر مع مَظهرِها الأنِيق، وَعلَى النقِيض مِن طَبعِه وذاته الحقيقيَّة، ونوْع البُؤس الذِي يُعانِيه، وَبدَت اللغَة الفرنْسيَّة بِصلابتهَا وأناقتها وَكَأنهَا تَمرِين فِي الزُّهْد، وَعلَى الرَّغْم مِمَّا قَالَه (شارْغَاف) "بِأنَّ لَا شَيْء يَستَحِق الوُجود، إِلَّا إِذَا كان مَكتُوبا بِالْفرنْسيَّة" وَلكِن مِن المؤْسِف أنَّ هَذِه اللغَة اليوْم فِي أَوْج الانْحطاط، والْمؤْسف أَكثَر أنَّ الفرنْسيِّين غَيْر آبهين بِذَلك، بيْنمَا سِيورَان (لَقيط البلْقان) يَتعذَّب لِرؤْيتهَا تَهلَك، ولَا يرى أيَّ المشْكلة فِي أن يُهْلِك مَعهَا.(77)

وَفِي النِّهاية أحسَّ سِيورَان بِغرْبةٍ تُجَاه اللغَة الفرنْسيَّة، مُعْتبِرًا أَنهَا (لُغَة مُسْتعارة) وَبذَلِك يَكُون على وَعْيٍ بِالْكلمات، وأنَّهَا مَوجُودة خارجة لَا فِيه، وبواسطة تِلْك المسافة التِي بَينِه وبيْن وَسِيلَة التَّعْبير، فَهِم لِماذَا يَصعُب -وَرُبمَا يَستحِيل- أن يَكُون المرْء شاعرًا بِلسان غَيْر لِسانه، كَيْف يَستخْرِج جوْهرًا مِن كلماتٍ لَيسَت مُتَجذرَة فِيه، فالْوافد الجدِيد يعيش على سَطْح القوْل، إِنَّه لَا يَستطِيع بِلغةٍ تَعَلَّمَها مُؤَخّرا، أن يُعبِّر عن ذَلِك الاحْتضار الباطنيِّ الذِي يَنبَثِق مِنْه الشِّعْر.(78)

ب- النَّازِيَّة واليَسَارِيَّة

لَقد عَانَى "سِيورَان" مِن إِشْكاليَّةٍ أُخرَى، إِضافة إِلى إِشْكاليَّة اللغَة، جَعلَت مِن حَيَاة المَنْفى أَكثَر قَسوَةٍ، وجحيمًا مُضاعَفاً، وتتجَلَّى هَذِه الإِشْكاليَّة فِي ماضيه اليساريّ المتطرّف وَخَاصَّة فَترَة شَبابِه الَّتِي عاشهَا فِي رُومانْيَا، وَالتِي يميل فِيها إِلى التَّطَرُّف، إِذ يَعتَرِف أَنَّه فِي السَّابعة عَشرَة مِن عُمْرِه، كان نهمًا إِلى كُلِّ أَشكَال التَّطَرُّف والْمروق، كان يُحِب أن يَستَخْلِص أَقصَى مَا يُمْكِن أن تُؤدِّي إِلَيه الفكْرة مِن نَتائِج، وأن يَذهَب بِالصَّرامة حَتَّى الشُّذوذ والاسْتفْزاز، أن يَصبُغ على الغضب جَلَال النِّظَام الفكْرِي، بِعبارةٍ أُخرَى كان مُتحمِّسًا إِلى كُلِّ شَيْء.[79]

وَهذَا الحمَاس دَفعَه إِلى الوُقوع فِي حُبِّ النِّظَام النَّازيِّ الحدِيث النَّشْأة، وَذلِك عِنْدمَا كان طالبًا مُبتعَثا لِلدِّراسة فِي ألْمانْيَا بَيْن عَامَي 1933 و1935، فَقْد وجد فِي (ألمانيَا هِتْلر)، كُلَّ مَا لَم يجدْه فِي رُومانْيَا، التِي كَانَت لَا تَزَال دَولَة دِيمقْراطيَّة نِسْبيًّا، وكَانَت ألمانيَا تعيش حَالَة مِن الهسْتيرْيَا السِّياسيَّة والتَّعْبئة الجماهيريَّة، وقد أَعتَقد أنَّ ذَلِك أمْرًا جيِّدًا؛ حَيْث أَعطَى النِّظَام النَّازيُّ لِلْألْمان إِحْساسًا بِأنَّ لَهُم رِسالة تاريخيَّة، وَذلِك مِن خِلَال قُدرَة "هِتْلر" على إِثارة الدَّوافع اللَّاعقْلانيَّة لَدى الألْمان، وَهُو شَيْء لَن تَقُوم دِيمقْراطيَّة رُومانْيَا بِتقْديمه لِشعْبِهَا.[80]

وَفِي تِلْك المرْحلة كتب سِيورَان مقالَاتٍ عَدِيدَةٍ، والَّتِي يُقِر فِيها بِأَنّه كان يقِف إِلى جَانِب "الهتْلريَّة"، وَيبرِز مِن خِلالِهَا أفْكاره المعادية لِلسَّاميَّة، وَهُو مَا يجْعلنَا نَطرَح سُؤَالا مَنطقِيا حَوْل أفْكاره ونتساءل هل كان "سِيورَان" نازيًّا فِي شَبابِه.[81] إِضافة إِلى أَنَّه كان فِي ثلاثِينيَّات القرْن العشْرين، مَندُوبا مُتجوِّلا لِلْحرَكة السِّياسيَّة الفاشيَّة الأُولى فِي رُومانْيَا، التِي أَصبَحت الحرس الحديديُّ فِيمَا بَعْد.[82]

وَيُعَد كِتابه "تَغيِير وَجْه رُومانْيَا" The Transfiguration of Romania" المنْشور عام 1937 شاهدًا على تِلْك المرْحلة، حَيْث عَبَّر فِيه عن الكثِير مِن المشاعر القوْميَّة، والتَّلْميحات المعادية لِلسَّاميَّة، وَالتِي تَستَنِد -إِلى حدِّ مَا- على الاشْمئْزاز الذَّاتيِّ، مِن تَخلُّف المجْتمع الرُّومانيِّ، والسَّعْي إِلى مُجتَمَعٍ حديثٍ، يَكُون مُوَحِّدا فِي إِراداته لِتحْقِيق غايات وَطَنيَّة.[83]

ويعْتَبر الكتَاب غريبًا بِالنِّسْبة لِكاتبٍ شابٍّ، اخْتَار أن يَنزَوِي فِي مَنْفَاه الميتافيزيقيِّ، وأن يَبتَعِد عن الأخْلاق والسِّياسة وَثَقافَة الجماهير.[84] بل إِنَّ "سِيورَان" نَفسَه يُشير فِي نصٍّ (بِلادي) الذِي نُشِر بَعْد وَفاتِه، إِلى أنَّ مُحْتويات كِتَاب (تَغيِير وَجْه رُومانْيَا) مُجرَّد "هَذَيان مَجنُونٍ مُتَوحشٍ."[85] وَلذَلِك وَعلَى العكْس مِن أعْماله المبكِّرة الأُخرى، لَم يُترْجِم إِلى الفرنْسيَّة أو أيِّ لُغَةٍ أُخرَى.[86] وهذا ما يبين أن "سيوران" تخلى عن تلك الأفكار ورفض تلك المواقف.

ورغْم ذَلِك لَم يَكُن سِيورَان يُبَالِي بِرَفض أفْكاره، بل كان يعتَبر أيَّ رَدَّة فِعْل رَافِضة لِلْأفْكار هِي التِي تُضْفِي للحيَاة أيِّ فِكْرَة.[87] إِضافة إِلى أَنَّه لَم يَكُن لَديْه الكثِير لِيشْرَحه لِجمْهوره بِاللُّغة الفرنْسيَّة، لِأنَّهم فِي البداية لَم يتمكَّنوا مِن الوُصول إِلى كُتُبه الرُّومانيَّة، كمَا أَنَّه كان مُحْرَجا مِن بَعْض هَذِه الكُتب، ولم يُشِر إِلَيْهَا تقْريبًا، بِاسْتثْناء بَعْض الملاحظات التِي يُشير إِلَيْهَا فِي سِيَاق "حماقَات الشَّبَاب" العرضيَّة، وَلعَلّ ذَلِك هو السَّبب فِي تَأخُّر تَرجمَة العدِيد مِن الكُتب الرُّومانيَّة إِلى الفرنْسيَّة والْإِنْجليزيَّة.[88]

وعنْدَمَا وُوجه سِيورَان لِأَول مَرَّةٍ بِفظاعة مَوقفه السِّياسيِّ المُؤيد لِلْفاشيَّة، بَعْد فَترَةٍ وَجيزَةٍ مِن نِهاية الحرْب، كاد أَلَّا يَتعرَّف بِكتابه (تَغيِير وَجْه رُومانْيَا)، وكتاباته الصِّحافيَّة السِّياسيَّة السَّابقة.[89] كمَا أَنَّه فِي حَياتِه المهْنيَّة الفرنْسيَّة اللَّاحقة، رفض البوْح بِارْتباطاته السِّياسيَّة السَّابقة، بدلا مِن الاعْتراف بِهَا؛ فَهُو نادرًا مَا يَذكر زَمالَة "هُومْبولْتْ" –الدبلوماسي والسياسي الألماني- التِي أَخذَته إِلى ألْمانْيَا.[90]

وَلَربمَا أَيْقظَتْه فَجأَة أَهوَال الحرْب التِي هلك فِيها بَعْض أصْدقائه، ولَا شك فِي أنَّ تِلْك النُّصوص قد بدتْ لَه حِينهَا كالْكوابيس، ثُمَّ فعل فِيه الزَّمن فِعْلته، فجعله يرى الأشْياء بِشَكلٍ أَكثَر وُضوحًا، بل اعترَف فِي إِحْدى رَسائِله أَنَّه أحْيانًا يَسأَل نَفسَه عمّ إِذَا كان حقًّا هُو مِن كَتَب هذَا الهذيان الذِي يقْتبسونه؟ ولَا يُمْكِن تَبرِير ذَلِك إِلَّا بِأَنه كان مُصَابا بِمَرض (الحمَاس) فِي فَترَةٍ مَا، وَلكِن لَا أحد يُرِيد الآن أن يُصدِّق أَنَّه قد شُفِي مِنْه.[91]

وَيرَى بَعْض النُّقَّاد أنَّ أدب وَفَلسفَة سِيورَان، فِي مَراحِل حَياتِه المتأخِّرة، مَا هِي إِلَّا مُحَاولَة تَنكُّر وَتطهِير لِذَلك الماضي غَيْر المُشرف، والْمتمثِّل فِي مَرْحَلة الشَّبَاب، خَاصَّة التِي عاشهَا فِي بَلدِه الأصْلِي حِين كان يُؤيِّد الدِّيكْتاتوريَّة ويعادي السَّاميَّة، وبالتَّالي كَانَت كُلُّ كِتاباته المتأخِّرة مُجرَّد هُرُوبٍ مِن انْزلاقات الشَّبَاب، وَتكفِيرٍ عَمَّا فَكَّر وَكتَب فِي تِلْك المرْحلة الرُّومانيَّة.[92]

وَإِن كان سِيورَان يُعْلِن عدم نَدمِه على بَعْض المواقف المرْتبطة بِتِلْك المرْحلة، وَعدَم تخلِّيه عن أفْكاره السَّابقة الرَّافضة لِلدِّيمقْراطيَّة، بل يُحَاوِل تَوْضيحهَا أَكثَر، بِأَنه كان يَقصِد الدِّيمقْراطيَّة فِي شكْلهَا الرُّومانيِّ، وَالتِي لَم تَكُن دِيمقْراطيَّة حَقِيقِية، ووقْف ضِدَّها لِأَنَّهَا لَم تَكُن تَعرِف كَيْف تَحمِي نفْسهَا، وحاربهَا لِضعْفِهَا الشدِيد، كَانَت الدِّيمقْراطيَّة الرُّومانيَّة نِظامًا بِلَا غَرِيزَة بَقَاء، فعلى الدِّيمقْراطيَّة حِماية نفْسهَا بِكلِّ الوسائل وإِثْبَات حُرِّيَّتِهَا، وأنَّ لَا تَعتَمِد فقط فِي حرْبهَا على مَفاهِيم مُجَردَةٍ، لَيْس لَهَا أَدنَى حظٍّ فِي مِنطَقة كالْبلْقان، كَانَت الدِّيمقْراطيَّة الرُّومانيَّة عَاجِزة، لَم تَكُن فِي مُستَوَى الحقْبة التَّاريخيَّة، ولَيْس لَائقًا أيضا بالنسبة للديمقراطية الإيمان بِالْأشْخاص، هَكذَا لِمجرَّد الإيمان.[93]

ويقدِّم "مِيلَان كُونْدارَا" وُجهَة نظرٍ مُغايرَةٍ، إِذ يرى أنَّ الأمْر لَا يَتَعلَّق بسيوران وتطوُّره الفكْرِي، بِقَدر مَا يَتَعلَّق بِتغيُّر فِي المزَاج الأوروبِّيِّ نَفسُه، فَفِي عَقْد التِّسْعينيَّات بَدأَت أُورُوبا-التِي تَسَاهلَت قديمًا مع النَّازيَّة الوليدة-تصفي حساباتها مع بعض المفكرين ومنهم "سيوران" وخاصة أفكاره في مرحلة الشباب، عندمَا كان يعيش فِي رُومانْيَا، واستغلت الصحف الأفكار الجدلية حتى تثير حوله التساؤلات وتلبسه بِزَّة رُومانيَّة فُلْكلوريَّة، وترغمه على إِبقَاء ذِراعه مَرفُوعة لِتحيَّة الفاشيَّة.[94]

ج-من الغربة إلى الاغتراب

وَكَان "سِيورَان" يعيش فِي مَنْفَاه (باريس)، بَعْد أن اعتبِره النِّظَام الشُّيوعيُّ (الرُّومانيُّ) خائنًا وَهارِبًا مِن الجنْديَّة، وبالتَّالي كَانَت كُتبُه مَمنُوعة فِي سِيَاق تَعتِيم كَامِلٍ عليْه.[95] وَعلَى الرَّغْم مِن أَنَّه حَظِي بِشعْبِيَّةٍ فِي فرنْسَا، وَتمَّت ترْجمَت أعماله إِلى العدِيد مِن اللُّغَات حَوْل العالم، مِن البولنْديَّة إِلى اليابانيَّة، إِلَّا أنَّ اسْمه لَا يُثير اهْتمامًا فِي العدِيد مِن الأوْساط الفكْريَّة، فَهُو مَعرُوف بِشَكلٍ خاصٍّ فِي عَالَم الأدب "الأنْغلوسكْسونيِّ"، حَتَّى بَعْد تَرجمَة أعْماله مِن الفرنْسيَّة إِلى الإِنْجليزيَّة، والثَّناء عليْه مِن بَعْض الكُتاب والْمثقَّفين إِلَّا أنَّ كِتاباته لَم تَحْظ بِالشُّهْرة التِي حَظيَت بِهَا أَعمَال "سارْتر أو دريدا".[96]

ويشير سِيورَان فِي مُقَابلَةٍ أجريت معه عام 1988، أَنَّه بَقِي مَجهُولا تمامًا خِلَال ثَلاثِين عامًا الماضية، وأنَّ كُتبَه لَم تَكُن تُبَاع، وَلَكنَّه تَقبَّل ذَلِك الوضْع جيِّدًا، لِأَنه يَتَناسَب مع رُؤْيته، التِي تَقُوم على العُزلة والاغْتراب، ويعْتَبر أنَّ الأعْوام الوحيدة المهِمة، هِي تِلْك التِي عاشهَا مَجهُولا، حَيْث وجد فِي ذَلِك لَذَّة لَا تُوصَف، حَتَّى وَإِن تَخَلَّلتهَا بَعْض المرارة، وَلَكنهَا حَالَة خَارِقة.[97]

ولَا جِدَال على أنَّ سِيورَان احتمَل الحيَاة مُحافِظًا على الغُربة التِي فِي أعْماقه، لِيتفادى أيَّ انتِماءٍ إِلى أيِّ أَرْضٍ أو إِلى أيِّ زمنٍ.[98] إِنَّهُ يَعِيشُ تَنَاقُضًا مُفْزِعًا، حَيْثُ يرِدُ فِي كُلِّ السِّجِلَّاتِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَدْنَى وُجُودٍ فِي الزَّمَنِ.[99] وَذلِك بِغضِّ النَّظر عَمَّا إِذَا كانت هَذِه الحيَاة مِن اخْتياره هُو نَفسُه، لِكيْ يَستمْتِع بِمَا يَنسبه لَهَا مِن مزايَا، أو أَنهَا فَرضَت عليْه بِسَبب كُلِّ هَذِه الإِشْكاليَّات السَّابقة، سَوَاء مَا يَتَعلَّق مِنهَا بِموْقف النِّظَام الحاكم

فِي رُومانْيَا مِن كِتاباته، أو المتعلِّق مِنهَا بِوضْعه المزْرِي فِي بلد المنْفى فرنْسَا، خَاصَّة مِن جَانِب اللغَة إِضافة إِلى ماضيه النَّازيِّ.

فَعلَى الرَّغْم مِن حَديثِه بِشَكلٍ دَائِمٍ عن مزايَا الغُربة، إِلَّا أَنَّه عَبَّر عن شَكْواه مِنهَا فِي بَعْض الأحْيان، حِين أقرَّ بِأَنه عاش شكْلا مُفْزِعا مِن الغُربة، مُعانِيًا مِن كَونِه يَجُوب كُلَّ شَوارِع الغرْب، مُنحدَرا مِن قَبائِل لَا حظَّ لَهَا، مِمَّا جَعلَه يَعشَق أوْطانًا مُتتالية، حَتَّى فقد الأمل فِي أن يَكُون لَه وطن، إِنَّه بِلَا فَاعلِيةٍ وَبلَا اسْمٍ وَبلَا حَيَويَّةٍ، مُتجمِّدًا فِي غسق الزَّمن، مُواطِنًا عَالمِيا دُون أن يَكُون لَه عَالَم.[100]

وَذلِك لِكوْنه يَنتَمِي إِلى الشُّعوب التِي لَا قَدْر لَهَا، وبالتَّالي هِي تَكوُّن أَكثَر عجْزًا على أن تُوفِّر قدْرًا لِأبْنائهَا، وتتْركهم يتعطَّشون إِلى آفاقٍ أُخرَى، فيتعلَّقون بِهَا ويسْتنْقذونهَا، حَتَّى يَنتَهِي بِهم الأمْر إِلى أَطيَافٍ يعْتريهَا القُنوط، فلَا يَجدُون مَا يُحبُّون فِي أوْطانهم، فيوجِّهون حُبهُم إِلى مَكَانٍ آخر، ولكنَّهم فِي ذَلِك المكَان يُلاقون الدَّهْشة مِن السُّكَّان الأصْليِّين.[101]

وَمِن الواضح أنَّ سِيورَان يَحمِل مسْؤوليَّة غُرْبته لِسببَيْنِ: الأول هو أنَّه يَنتَمِي إِلى بُقعَةٍ جُغْرافيَّةٍ ومجْموعةٍ عِرْقيَّةٍ مُتَخلفَةٍ، لَا تُلبِّي طُمُوح أفْرادهَا، مِمَّا يدْفعهم إِلى البحْث عن وطنٍ وَعرَقٍ آخر ينْتمون إِلَيه، لِكيْ يُحقِّقوا مِن خِلاله آمالهم وطموحاتهم، والثاني أنه حين يَجدُون ذَلِك الوطن البدِيل، وعنْد أَوَّل مُحَاولَة لِلانْدماج فِيه، يُقابلون بِجفْوةٍ مِن أَهْل الوطن الأصْليِّين، حِين يُعاملون على أَنهُم غُرَباء، مِمَّا يدْفعهم إِلى تَكْرار تَجرِبة البحْث عن وطنٍ آخر دُون جَدوَى، ويعانون الغُربة لَيْس مَرَّة وَاحِدة، بل مِرارًا وتكْرارًا.

وفي المحصلة تأقلم سيوران مع غربته لدرجة لَم يَعُد يَذكُر كَيْف تَلقَّى هَذِه المعاناة، بأن يعيش المرْء بِلَا دَولَةٍ وَبلَا صِحَّةٍ وَبلَا مَشارِيع وَبلَا ذِكْريَات، كمَا أَنَّه يَقذِف بعيدًا عَنْه كُلَّ مُسْتقْبَلٍ وَكُل مَعرِفةٍ، لَا يَترُك خلْفهم سِوى سريرٍ حقيرٍ، يَتَعلَّم علَيْه نِسْيَان الشَّمْس والزَّفرات، يَظَل مُمَددا علَيْه يُفرِّغ السَّاعات، وَكُل شَيْءٍ مِن حَوله يَأمُره بِالْهلاك.[102] ونجح فِي نِهاية الأمْر فِي البقَاء، واسْتطاع العيْش دُون أُسُسٍ، وَدُون أن يَحضُر فِي أيِّ مَكَانٍ على أَرضِيةٍ صُلبَةٍ، وَذلِك لِأنَّ فِي وُسْع الإنسان أن يتعوَّد مع مُرُور السَّنوات حَتَّى على الدُّوَّار.[103]

خاتمة

يُعد "سيوران" مثالا نموذجياً، عند الحديث عن تأثير حياة الفيلسوف على فلسفته، فحياته وفلسفته متطابقتان بشكلٍ كاملٍ إلى الحد الذي يكون من المستحيل الفصل بينهما، فلا يمكن فهم نصوصه ولا تتبع تسلسل أفكاره دون التعرف على أدق تفاصيل حياته، وليس هذا من باب التأويل، بل هو نفسه يشير إلى ذلك مرارا وبشكلٍ صريحٍ في كتاباته ولقاءاته، معتبرا أن الحياة والأفكار يجب أن يتمتعا بالانسيابية ذاتها وإلا لا جدوى من الفلسفة ولاَ قيمة للحياة.

ورغم تنوع حياة سيوران وتقلبها إلا أنه يمكن الإشارة إلى مجموعة عناصرٍ كان لها الأثر الأكبر في فلسفته، يأتي في مقدمتها أسرته ونشأته، حيث كان لتناقضات والده ووالدته أثر كبير في تنوع أفكاره، حيث تذبذبت بين الإلحاد ورفض اللاهوت وبين اللجوء إلى القوى العليا الروحية، إضافة إلى موقفه من المرأة والحبّ والإنجاب، أما انفصاله عن مسقط رأسه مبكرا، فغرس فيه شعور الغربة وعدم الانتماء الدائم.

كما كان للمرض دور بارز في تشكّل أفكاره، فهو المصدر الرئيس والملهم الأول لكل أفكاره التشاؤمية والسوداوية، لأنّه كان ينظر إلى الحياة بمنظار المرضى العابرين، حيث لا يتذوقون لذة الحياة مثل الأصحّاء، ولا ينعمون براحة الموت، فهم يعيشون في لحظات اللايقين المستمر، ويجعل من كل أهداف الحياة دون قيمة وتفقد الحياة معناها قبل حتى أن تنتهي بالموت.

ويمكن القول أنّ أهم مراحل حياته تأثيرا في فلسفته، هي المرحلة الأطول والتي قضاها غريبا على كل الأصعدة، فقد كان غريبا في بلده "رومانيا"، بسبب أفكاره عن التّطور والخروج من عباءة "البلقان" واللحاق "بأوروبا"، ثم غربة أخرى في "فرنسا"، التي رحبت به برؤوس أصابعها فقط، فلم يشعر فيها بالأمان، ونظر إليه الفرنسيون على أنه غريب قادم من البلقان، كما أنه عانى من عدم انسجامه مع اللغة الفرنسية وظل حائرا بأي لغة يكتب، فلا الرومان يحبونه ولا الفرنسيون يفهمونه، ما أدى به في نهاية المطاف بأن عاش كاتبا مجهولا منبوذا.

وَكُل ذَلِك يَدُل على أنَّ الغُربة كَانَت أمْرًا واقعًا بِالنِّسْبة لَسيوران، بل إنَّها كَانَت مَأْسَاة حَقِيقَة، انْعكَستْ بِشَكلٍ وَاضِحٍ على كِتاباته، كمَا أنَّ تخطِّي تِلْك المأساة تَطلُب مِنه اللُّجوء إِلى حِيلٍ دِفاعِيَّةٍ، مِثْل اللُّجوء إِلى اللَّامُبالَاة أو الاسْتسْلام والتَّعوُّد، وَأنَّه لَو لَم يَفعَل أحد هذيْنِ الأمرينِ، لَانتَهى بِه الأمر إِلى الانْتحار وقتل نَفسِه.

---

(1) زنار، حميد،(2009) المعنى والغضب، الاختلاف، الجزائر، ص 18
(2) السابق، ص ص 37- 43
(3) السابق، ص ص 53- **55**
(4) العيد، رائد،(2022) اعترافات سيوران، المجلة العربية، العدد 552 ، الرياض، ص 92
(5)Cioran, Emil,(2011) The temptation to exist, Trans by Richard Howard Arcade Publishing, New 82York, p
(6) زنار، حميد،(2009) المعنى والغضب، مرجع سابق، ص 51
(7) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، (ت) آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت، ص 29
(8) سيوران، إميل،(2021) رسالة في التحلل، (ت) آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت، ص **256**
(9) السابق، ص **273**
(10) زنار، حميد،(2009) المعنى والغضب، مرجع سابق، ص 42
(11) الطايب، فاتحة،(2010) الترجمة في زمن الآخر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص 365
(12) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، (ت) آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت، ص 186
(13)Weiss ,Jason,(1991) Writing at Risk: Interviews in Paris With Uncommon Writers, , Publisher: University of Iowa Press, lowa City **p 48**
(14) سيوران، إميل،(2020) على مرتفعات اليأس، (ت) عبدالوهاب الملوح، منشورات الصفحة سبعة، الجبيل، ص 5
(15) سيوران، إميل،(2020) دموع وقديسون، (ت) عبدالوهاب الملوح، منشورات الصفحة سبعة، الجبيل، ص 14
(16) Weiss ,Jason,(1991) **Writing at Risk: Interviews in Paris With Uncommon Writers, p 26**
(17) سيوران، إميل،(2020) على مرتفعات اليأس، مصدر سابق، ص 5
(18) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 27
(19) Cioran, Emil,(2012) On the Heights of Despair, Trans Ilinca Zarifopol-Johnston, The University of Chicago Press, Chicago, **p XI**
(20) Lebedeva, Daria,(2015) Quaternion of the Examples of a Philosophical Influence: Schopenhauer-Dostoevsky - Nietzsche-Cioran, Peter Lang GmbH, **New York, p 118**
(21) سيوران، إميل،(2003) المياه كلها بلون الغرق، (ت) آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت، ص 34
(22) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق ، ص 35
(23) السابق، ص 32
(24) سيوران، إميل،(2015) مثالب الولادة، (ت) آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت، ص 97
(25) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 195
(26) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 32
(27) سيوران، إميل،(2021) رسالة في التحلل، مصدر سابق، ص 197
(28) سيوران، إميل،(2001) سيوران. ما أقذرك حرفة أيتها الكتابة، مقابلة أجراها (ميخائيل جاكوب)، (ت) محمد الصالحي، مجلة نزوى، العدد 27، يوليو، وزارة الإعلام العمانية، مسقط، **ص 119**
(29) سيوران، إميل،(2021) رسالة في التحلل، مصدر سابق، ص 280
(30) السابق، ص 280
(31) المصباحي، حسونه،(2008) الفيلسوف الغائم الهائم. سيوران من العبث أن نثق في الحقيقة، صحيفة العرب، السنة 31، العدد 8078، مؤسسة العرب للصحافة والنشر، لندن، ص 9
(32) سيوران، إميل(2001) سيوران. ما أقذرك حرفة أيتها الكتابة، مصدر سابق، **ص 119**
(33)Weiss ,Jason,(1991) Writing at Risk: Interviews in Paris With Uncommon Writers, **p 21**
(34)Cioran, Emile,(2002) The New Gods, trans Richard Howard, **The University of Chicago Press, Chicago, p 91**
(35) سيوران، إميل،(2021) رسالة في التحلل، مصدر سابق، ص 254
(36) سيوران، إميل،(2001) سيوران. ما أقذرك حرفة أيتها الكتابة، مصدر سابق، **ص 119**
(37) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 84

(38)Cioran, Emile,(2002) The New Gods**, p 86**

(39) سيوران، إميل،(2020) على مرتفعات اليأس، مصدر سابق، ص 123

(40) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 192

(41) Cioran, Emil,(2012) On the Heights of Despair, **p IX**

(42) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 133

(43) السابق، ص 133

(44) سيوران، إميل،(2003) المياه كلها بلون الغرق، مصدر سابق، ص 160

(45) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 65

(46) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 110

(47)Cioran, Emil,(2011) The temptation to exist, p 52

(48) سيوران، إميل،(2010) تاريخ ويوتيوبيا، (ت) آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت، ص ص 30، **31**

(49) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 176

(50) سيوران، إميل،(2010) تاريخ ويوتيوبيا، مصدر سابق، ص **43**

(51) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 75

(52)Pilling, John,(1977) Two versions of de-composition Samuel Beckett and E. M. Cioran, Higher Education Quarterly, Volume 31, Issue 3, **p 306**

(53) سيوران، إميل،(2001) سيوران. ما أقذرك حرفة أيتها الكتابة، مصدر سابق، ص 124

(54) سيوران، إميل،(2010) تاريخ ويوتيوبيا، مصدر سابق، ص **21**

(55) السابق، ص **44**

(56) براداتان، كوستيكا،(2021) لم يكن الأمر ليكون! قمم يأس إميل سيوران ،(ت) محمد الناجي، مجلة الدوحة/ العدد 164، وزارة الثقافة بدولة قطر، الدوحة، ص **79**

(57) سيوران، إميل،(2003) المياه كلها بلون الغرق، مصدر سابق، ص 83

(58) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 13

(59) Cioran, Emil,(2011) The temptation to exist, p p 55- 57

(60)bid, **p 57**

(61) سيوران، إميل،(2010) تاريخ ويوتيوبيا، مصدر سابق، ص **44**

(62) السابق، ص **44**

(63) سيوران، إميل،(2003) المياه كلها بلون الغرق، مصدر سابق، ص 179

(64) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 20

(65)Cioran, Emil,(2011) The temptation to exist, p 55

(66) سيوران، إميل،(2001) سيوران. ما أقذرك حرفة أيتها الكتابة، مصدر سابق، ص 124

(67)Cioran, Emil,(2011) The temptation to exist, p 55

(68) فاروق، وائل،(2018) رسائل إميل سيوران. بين قلق ويقين، مجلة الكلمة العدد 131/ مارس، تصدر إلكترونيا **http://www.alkalimah.net/Articles/Read/19628**

(69) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 220

(70) السابق، ص 220

(71) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 40

(72)Weiss ,Jason,(1991) Writing at Risk: Interviews in Paris With Uncommon Writers, **p 28**

(73) سيوران، إميل،(2010) تاريخ ويوتيوبيا، مصدر سابق، ص **22**

(74) السابق، ص ص **21، 22**

(75) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 149

(76) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص ص 103، 104

(77) السابق، ص 222

(78) سيوران، إميل،(2018) اعترافات ولعنات، مصدر سابق، ص 149

(79) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 183

(80) براداتان، كوستيكا،(2021) لم يكن الأمر ليكون! قمم يأس إميل سيوران، مصدر سابق، ص **77**

(81) نوري، شاكر،(1997) هل كان سيوران نازيا في شبابه، القدس العربي، السنة السابعة/ العدد 2545 يونيو، لندن، ص 7

(82) Dienstag, Joshua Foa,(2006) Pessimism : philosophy, ethic, spirit, Princeton University Press, Princeton, **p 118**

(83) ibid, **p 118**

(84) أنيك، بونو (آخرون)،(2013) تاريخ الآداب الأوروبية (ج3)، (ت) موريس جلال، الهيئة السورية للكتاب، دمشق، ص 572

(85) براداتان، كوستيكا،(2021) لم يكن الأمر ليكون! قمم يأس إميل سيوران ، مرجع سابق، ص، **79**

(86) Dienstag, Joshua Foa,(2006) Pessimism : philosophy, ethic, spirit, **p 118**

(87) Cioran, Emil,(2010) The Book of Delusions, Trans with an intro by Camelia Elias , Hyperion, London, **p 71**

(88) Dienstag, Joshua Foa,(2006) Pessimism : philosophy, ethic, spirit, **p 123**

(89) براداتان، كوستيكا،(2021) لم يكن الأمر ليكون! قمم يأس إميل سيوران ، مرجع سابق، ص **78**

(90) Dienstag, Joshua Foa,(2006) Pessimism : philosophy, ethic, spirit, **p 118**

(91) براداتان، كوستيكا،(2021) لم يكن الأمر ليكون! قمم يأس إميل سيوران ، مرجع سابق، ص، **79**

(92) زنار، حميد،(2009) المعنى والغضب، مرجع سابق، ص 40

(93) سيوران، إميل،(2001) سيوران. ما أقذرك حرفة أيتها الكتابة، مصدر سابق، **ص 124**
(94) كوندرا، ميلان،(2015) الستارة، (ت) معن عاقل، المركز الثقافي العربي، الرباط، ص 143
(95) فاروق، وائل،(2018) رسائل إميل سيوران. بين قلق ويقين، مرجع سابق، تصدر إلكترونيا
http://www.alkalimah.net/Articles/Read/19628
(96) Zarifopol-Johnston, Ilinca,(2009) Searching for Cioran, Indiana University Press, Bloomington, **p 7**
(97) سيوران، إميل،(2014) لو كان آدم سعيدا، (ت) محمد علي البوسيفي، منشورات أزمنة، الدوحة، ص 18
(98) خضر، صونيا،(2016) باب الأبد، دار الفارابي، بيروت، ص 12
(99) سيوران، إميل،(2021) رسالة في التحلل، مصدر سابق، ص 178
(100) السابق، ص **172**
(101) السابق، ص **172**
(102) السابق، ص 251
(103) سيوران، إميل،(2021) تمارين في الإعجاب، مصدر سابق، ص 218